

## متى تحفظ ذاكرتنا الكبار؟

## واليسار العربي؟ [2/1]

تؤسس لقيم فكرية أصيلة باعثة على النهوض بغية إحداث التوازن المطلوب على الساحة.

واجه السيد فضل الله ولا يزال كغيره من الكبار موجات قاسية وحملات عنيفة اختلط فيها السياسي مع الشخصي بغية إضعافه وإلغائه بما عبّر ويعبّر عن عقل جمعي مفرط في انشاده للتقاليد والطقوس والتأويلات المرتدية لبوس القدااسة. هو عقل رضي أن يقعد عن مهمته في الحوار والتغيير والتفاعل الإيجابي مع كل الظروف بما يوسع من دائرة تمثله للإسهامات الفكرية والثقافية، فقام بمهمة تنوير الناس وتحريكهم نحو مسؤولياتهم وتنبههم لضرورة فهم الماضي بما يحمل من تراث متنوع حتى يقرأ الحاضر جيداً ويحسنوا التعامل مع القضايا بما يستجد مستقبلاً. فالسيد فضل الله يريد مخاطبة إنسان لا يعرف الخنوع والخضوع والانزواء في وقت كانت الروح الانعزالية عن الواقع هي المسيطرة ولا تزال.

تحسس من خلال فكره الوحدوي الإسلامي والذي نظر له وعمل لعشرات السنين ضرورة تأسيس ذهنية مؤمنة بالوحدة في مواجهة مشاريع التفكيك، تفتتت ثقافة الأمة وتعليبها في علب المذهبية والتطرف وإشغال الأنا بأنانياتها الضيقة وحبس الذات بعيداً عن النظر إلى خارج حدود أهوائها.

تجربة المرجعية لديه ليست بحثاً عن مجد شخصي أو ملء ترف ذهني عابر بل هي مشروع يمتد على مساحة الإنسانية ولديه غاياته الإصلاحية والنفعية على المستويات كافة. فالمرجعية ليست لقباً دينياً كما يحلو للبعض، بل إنها مرتبة يفرغ من خلالها الفقيه عصارة لحظاته العاقبة بالجدد والمشقة والصبر بغية تصحيح مسيرة الناس وسيرهم نحو روح اجتماعية واحدة جديرة بتطلعاتهم.

كلما كانت المرجعية حاضرة لممارسة فعل الأبناء كانت ملتصقة أكثر بدورها ومتحسسة بشكل أعمق لمسؤولياتها التي تترجم عملاً دؤوباً ومخلصاً لخدمة الناس والحياة، فليست هي مرتبة ملوكية تسلطية منعزلة عن هموم الناس ومتفرغة لنفسها وما يحيط بها من حاشية.

سيرة المرجع فضل الله تختصر جهداً حثيثاً لأعمال الكبار النهوض بواقعهم الذي مزقته العصبية والحسابات الأرضية، فكان لا بد من النهوض وبعث الروح في جسد الأمة المريض عبر إحياء قلب الإنسان بالكلم الطيب وصولاً إلى تحريك عقله.

الفقيه الإنسان الذي عاش إنسانيته مع الناس مريباً لهم على مشاعر المحبة التي تعكس إصراراً على تأكيد الكرامة للجميع في وقت باتت الكرامات مهدورة.

ما يلفت للأسف تعدد كثيرين الإساءة لكبارهم وحرمان واقعهم بالتالي من الإفادة من تجاربهم، وكان نصيب الكبار أن يتحملوا الغربة في حياتهم وبعد رحيلهم، ترى لماذا كل هذا التخلف ورمي أعمال الكبار وتجاربهم بحجارة الجهل والاكتفاء بالقشور والتسطيح والخنوع بدل حفظهم والإفادة منهم؟

القضية ليست شخصية بل ترمز إلى وضع مريب، فالمجتمع الذي يرضى بالشكليات والمظاهر والخطابات الفارغة وهجران تاريخه المشرق والغني بالتجارب الناجحة هو مجتمع منحدر تخلى عن جذوره وقعد عن مهامه في مواكبة الزمن ولغته وأدمن السقوط واعتاد الانحطاط وهذا بحد ذاته خطر كبير لا بد من التنبه لآثاره الوخيمة.

نحتاج اليوم فعلاً إلى أمثال المرجع السيد محمد حسين فضل الله وكل الكبار الذين يثبتون واقعنا المهزوز ويرفدونه بحكمتهم التي غلت في زمن التصحر.

\* أكاديمي وحزوي

### محمد عبدالله فضل الله \*

الحديث عن الكبار شائك إذ الوهولة تدعك في وجل ألا تفهم شيئاً من حقهم، ولدوا كباراً في حياة أرادوها كبيرة بلا حواجز وفواصل تحجب الإنسان عن إبداعه وعن الآخرين المختلفين عنه لوناً أو فكراً وعقيدة.

المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله، واحد من هؤلاء الكبار على مساحة وطن الإنسانية الشاسع، إسهاماته وحضوره تركا بصمة مميزة في عصرنا الحديث. ففي ذكراه السابعة كان السبع العجاف بعد رحيله لا تزال شاهدة على مسيرة تجارب سنين وفيرة ستستمر طويلة الأثر بما تحمل من ثقل وغنى في وجوه متعددة.

ترتاح النفس إليه عندما تتذوق خطاباً بعيداً عن التكلف والصنعة في الكلام حيث تسمعه محاضراً وواعظاً وخطيباً، يحاكي القلب ويخترق شغافه شئت أم أبيت.

رجاحة عقله في وقت دفعه تصادم العقول فيه إلى طرق ما هو محزّم التطرق إليه من نصوص مغلقة ورفض الاستزلام الصنمى لها، فنبش التراث خبيراً مؤصلاً للمفاهيم التي اشتاقت إلى من ينفذ عنها غبار الحجر والانغلاق. واتكل على غزارة الثقافة وموسوعية العلم ودقة الاجتهاد والالتزام بالرأي بلا تردد، وشجاعة في الطرح بلا مهادنة، وصلابة في الموقف بلا انكسار مستقيماً من تجارب الحياة منذ براعم الطفولة في النجف الأشرف ومحافله الدينية والأدبية إلى لبنان بلد الغرائب والعجائب ومختبر التجارب والرجال.

كلامه حول قضايا الدين والإنسان والحياة

### واجه السيد فضل الله حملات عنيفة اختلط فيها السياسي مع الشخصي

لم يصبه الياس ولم تتسلل البرودة يوماً إلى خطاباته في زمن أصبح كل شيء فيه مستهلكاً ومكرراً، بل جاهد كي يبقى الخطاب مساوفاً للمواجهة مع كل محاولات الداخل والخارج من أجل تدبير الذك وإفراغها من لحظتها الزمنية التي تتحسس بها مسؤولياتها، وعمل على إصلاحها وتغذيتها روحياً وفكرياً حتى تبقى حية ومتناسبة مع لحظتها ووظيفتها.

الكبار من طراز السيد فضل الله وأمثاله لا يعيشون لأنفسهم، فما داموا أحياء لا فرصة أمامهم سوى المواجهة والتضحية إذ همتهم ونظرتهم الثاقبة تغلق صدورهم وتضعهم أمام مسؤوليات فهموا حجمها وتناجها فكانوا خير من حمل الأمانة.

لم يكن السيد فضل الله من صنف المجتهدين التقليديين، فتحسسه بمسؤولياته واستشرفه لما يحاك ويدور من أحداث محلية ودولية حركت لديه مزيداً من الاندفاع نحو إحياء الاجتهاد بما يخدم الإنسان وتحرره العقلي من الجمود والمألوف الذي لا يلي التطلعات ولا يصنع إنساناً متمتعاً بعقل منفتح على اللحظة التاريخية التي تناديه لاستثمارها بغية تأكيد الهوية الإنسانية الشاخصة عبر الحضور المميز والمتعدد الجوانب، ومنه الجانب الغيبي الذي يجب أن يطل على مشاكل الأرض وتحدياتها بما يبرز أصالة التفكير في مقاربتة لقضايا الوجود.

أسلوبه الدعوي شكّل علامة فارقة على مستوى الشكل والمضمون بما جعله موضع تقدير واهتمام، هذا الأسلوب الذي أضاء على الأساس التوحيدي للإسلام والرسالات السماوية بما يحفز على اقتناص اللحظات التاريخية التي

الداخلي على العالم الخارجي دون ضوابط، فأصبح اقتصاداً قائماً على الاستيراد بصفة أساسية وشبه كلية. سواء في ذلك استيراد السلع الغذائية والدوائية الأساسية أو استيراد السلع الإنتاجية من المستلزمات والمدخلات الوسيطة (الكيمياويات والمعادن الأساسية)، ومن الآلات والمعدات وأدوات الورش.

وكان قد قام على «مدماك» الانفتاح الذي بدأ أواسط السبعينيات - مدماك أبحر سُمي من طرف دعائه بـ«الإصلاح» وبدأ في أول التسعينيات وفق سياسات موجهة نحو ما أطلق عليه «التثبيت» أو «الاستقرار» عبر استهداف التضخم بواسطة خفض الإنفاق الاجتماعي على الدعم العيني والخدمات الأساسية، من أجل تقليل عجز الموازنة العامة ومن ثم استبعاد الحاجة إلى التوسع في التمويل التضخمي الذي يضخ السيولة النقدية كرافعة لصعود المستوى العام للأسعار.

ولما أضيفت إلى سياسات «التثبيت» واستهداف التضخم، سياسة للصرف هادفة إلى خفض قيمة العملة المحلية Devaluation مع إزالة الضوابط على حركة رؤوس الأموال نحو الخارج (Capital Controls)، فإن ذلك أدى في نهاية الأمر - مع سياسة رفع أسعار الفائدة إلى مستويات قياسية - إلى تثبيط حركة الاستثمارات المحلية مع ما يتبع ذلك من ركود. هذا من جهة أولى. ومن جهة ثانية، فقد انتقل أثر التضخم الدولي إلى الداخل عبر آليات الاستيراد الحر واقتصاديات السوق الطليقة في الداخل.

وكان أن هزمت سياسة «الإصلاح» نفسها، إذ بدأت باستهداف التضخم فإذا بها تنتهي إلى الوقوع في «جب الركود» ممتزجاً بالتضخم المستورد، وهذه هي حالة السياسات التي تهزم نفسها بنفسها Self-defeating.

وكان هذا أوضح ما يمكن في مطلع القرن الحادي والعشرين، خلال فترة 2000-2003، مع بروز سمات الكساد المقيم.

فوق المدماك المزودج للانفتاح والإصلاح، وجدت السياسة الاقتصادية نفسها وقد انجرفت تلقائياً إلى المزيد من خدمة مصالح الأقلية في وجه مصلحة الأغلبية تحت راية «الليبرالية الجديدة»، وفق ما أشرنا إليه آنفاً، مما مهد السبيل سالكاً إلى حدث الثورة العظيم في الخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير 2011.

ومن عجائب الدهر أن فشل «الليبرالية الجديدة». خلال فترة محاولة توريث السلطة (2004 . 2010). لم يشكل رادعاً كافياً للنخبة المصرية المتفردة بعد الثورة بما يحول دون العودة إلى السياسات الفاشلة نفسها بعد حين. غير أن هذا حديث آخر، نعود إليه في مقالنا التالي، للسؤال عن البديل من واقع بنات أفكار اليسار.

\* أستاذ في معهد التخطيط القومي بالقاهرة

وتشتيت جهودها والعمل على جعلها لا تستطيع التقاط أنفاسها بعمليات وإن كانت صغيرة الحجم أو الأثر إلا أن انتشارها وتضاعفها سيكون لهما تأثير على المدى الطويل.

2- جذب شباب جدد للعمل العسكري عن طريق القيام كل فترة زمنية مناسبة بعمليات نوعية تلفت أنظار الناس.

3- إخراج المناطق المختارة من سيطرة الأنظمة ومن ثم العمل على إدارة التوحش الذي سيحدث فيها.

وقد فشلت هذه الأهداف عملياً، وإن كان التنظيم فرض سيطرته لمدة ثلاث سنوات لكنها لم تستمر وعدم الاستمرار يعني الفشل، وقد حصد داعش الإرهاب والقتل والتدمير فقط. إذ، يعتبر يوم التاسع والعشرين من حزيران-يونيو 2017، يوماً مفصلياً، سوف يؤرخ لما بعد «داعش» والذي يتطلب استكمال القتال حتى تحرير كل المناطق من التنظيم الإرهابي وإراحة الناس من وحشيتهم وإجرامهم، كما لا بد من العمل على تجفيف منابع الإرهاب سواء الثقافية أو المالية.

\*باحث لبناني

للاستمرار زمنياً، وللتعمق موضوعياً من زاوية التصنيع والعلم والتكنولوجيا.

وفي كلمات أخرى، اليسار يتجه أساساً نحو تحقيق التنمية الشاملة، مستخدماً أدوات المنهجية التخطيطية من دون إخلال بمقتضيات السوق إن وجدت.

أما اليمين فوجهته الأساسية إعطاء الأولوية لتطوير مصالح الأقلية الاجتماعية من الشرائح الاجتماعية ذات النصيب الأكبر من الثروة والدخل، في مواجهة الأغلبية الشاسعة الممتثلة لنحو 80% من أبناء المجتمع. وفي كلمات أخرى، اليمين يتجه إلى تعزيز الأنشطة الاقتصادية الهامشية نسبياً، مع الاعتماد على إطلاق قوى السوق - العرض والطلب - من دون تدخل فعال من جهات الدولة، وذلك سعياً إلى تعظيم عوائد أصحاب الملكية الخاصة الكبيرة والرأسمالية من رجال المال والأعمال، الكبار بصفة أساسية، في مواجهة العاملين والمنتجين المباشرين المجريدين إلى حد كبير من تملك رأس المال المادي والمالي والمعرفي.

بعد تصفية التجربة النموية المصرية - بقيادة عبد الناصر - والتي اكتسبت في مراحلها الأخيرة، أواسط الستينيات، السمات الاشتراكية، تبلورت منذ مطلع السبعينيات، برعاية السادات ونظامه الانفتاحي التابع للرأسمالية الدولية، نخبة جديدة.

تلك النخبة، كانت تتعيش فئاتها المتنفذة من «رجال المال والأعمال الجدد» على الأنشطة الهامشية لتغذي الانقسام الطبقي الحاد للمجتمع بين أقلية مؤسرة وأغلبية معسرة من جميع الوجوه، خلال حقبة «الانفتاح» في عقدي السبعينيات والثمانينيات، ثم تحت ظلال ما سُمي «الإصلاح الاقتصادي». وفق «وصفة صندوق النقد الدولي» - خلال عقد التسعينيات.

من اجتماع «الانفتاح» و«الإصلاح» برزت في العقد الأول من القرن الحالي نخبة «الليبرالية الجديدة»، التي أمن أعضاؤها بقديسية الأسواق، وبقاقتصاديات السوق - آليات العرض والطلب (العمياء) - كآلية منفردة لتسيير الحياة الاقتصادية وفق مصالح الأقلية من المجتمع، المشتغلة - كأولوية أولى - في الأنشطة الهامشية ذات العائد السريع المرتفع، لا سيما العقارات والاتصالات، بدلاً من الزراعة والصناعة التحويلية والخدمات العلمية - التكنولوجية المتطورة.

وكان أن دفعت نخبة الليبرالية الجديدة بوجوه رجالها إلى سدة السلطة العليا منذ عام 2004 فيما سُمي بحكومة «رجال الأعمال» تحت رعاية «مشروع التوريث» المعروف، وكان ما كان من تزواج «السلطة وعالم الأعمال» حتى وقعت الواقعة في 25 يناير 2011.

كانت سياسة «الليبراليين الجدد» خلال العشرية الأولى من هذا القرن نموذجاً نمطياً للسياسة الداعية إلى «انفتاح» الاقتصاد

وسكنهم وعملهم كمجموعات، لذلك لا بد من اليقظة في هذا الإطار. وتطبيق استراتيجية «داعش» حالياً بعد العراق الذي انتصر على التنظيم الإرهابي وقصم ظهر دولة الخلافة، في اليمن وأفغانستان وبعض دول الخليج وعلى رأسها السعودية، حيث من الممكن أن يوسع «داعش» انتشاره وعمله في هذه البقاع الجغرافية، وخاصة بين السعودية واليمن على أمل وصل رقعته الجغرافية بين البلدين. كما من المتوقع أن يتحول «داعش» في سياقه العملياتي إلى مجموعات متناثرة ومتبعثرة تعمل وفق استراتيجية تنظيم القاعدة ورؤية مسؤوله السابق أسامة بن لادن، حيث تنتشر في عدد من البلدان وتشكل مجموعات تخريبية تنفذ مخططات إرهابية كرد انتقامي على من يحارب التنظيم. وستزيد خسارة التنظيم في العراق وسوريا، من تناحره مع جماعات المعارضة السورية وكذلك مع جبهة النصرة، من أجل السيطرة على مناطق جديدة ينقل مسلحيها إليها.

لقد عمل التنظيم الإرهابي على عدة أهداف بدأت تسقط بالتوالي، وهي:

1- إنهاك «قوات العدو» المفترض لديه،



تجربة المرجعية لديه ليست بحثاً عن مجد شخصي أو ملء ترف ذهني عابر (هيثم الموسوي)